وتطويره وتوسيعه بوتائر أسرع فحسب، وانما شكل أيضاً تحدياً آخر بالنسبة لها. إذ ساعد على تعزيز حركة الهجرة المعاكسة، حيث وصل عدد الاسرائيليين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الاميركية حتى الآن، إلى أكثر من ثلاثمئة ألف شخص. ولا يحتاج المرء إلى خصوبة خيال للوقوف على مدى خطورة نجاح الصهيونية في التخلص من أزمتها فيما لو تمكنت من جلب هذا العدد وأقنعته بالاستيطان في المناطق المحتلة «حديثاً».

ولعله من المفيد هنا أن نذكر بأن معظم موجات الهجرة اليهودية إلى فلسطين ومن ثم إلى الكيان الاسرائيلي لم تتأت عن العامل الصهيوني بقدر ما تأتت عن رغبة اليهود في التخلص من واقع لا يرغبونه. فالهجرة التي أعقبت الحرب العالمية الثانية ناجمة بالاصل عن واقع الضيق الذي عانت منه مجموعات يهودية. كما وان هجرة يهود العالم العربي (الطوائف الشرقية) لم تتأت هي الأخرى عن الدافع الصهيوني، وكذلك الأمر بالنسبة لموجات سبقت من الهجرة.

وإلى جانب واقع تحسن أوضاع اليهود، ساعد واقع المجتمع الاسرائيلي (وهو واقع مغاير لتصور هرتسل «الدولة النموذجية») القائم على التمييز الاثني الواقعي غير المكتوب، على فقدان اسرائيل قوة جذب جماهير يهودية اليها. كما أضفى عامل غياب الأمن بفعل استمرار الصراع العربي ـ الاسرائيلي وهو نقيض لمقولة «الملجأ الآمن» – ظلاله على الواقعين آنفي الذكر، وساعد، بشكل أو بآخر، على مسار عملية نفي «المنفى».

اذن، يمكن القول: ان الحركة الصهيونية تمر في أزمة ذاتية تجد تعبيرها الاساسي في ضآلة حجم الهجرة إلى الكيان الاسرائيلي، وفي استمرار ظاهرة الهجرة المعاكسة منه، بحيث غدت كفة الهجرة، خلال الأعوام الماضية، لا ترجح كثيراً عن نقيضها. ونخلص من ذلك كله باستنتاجين:

١ – ان خلاص اليهود من الواقع اللاسامي، أي خلاصهم من حدة الرغبة الكامنة لدى عدد من الشعوب الغربية في التخلص من التجمعات اليهودية في بلدانها، على أثر ترسخ الأفكار الليبرالية والانسانية، فيه مصلحة لليهود ولنا على حد سواء، ولا ينطوي ذلك على أية مصلحة للصهيونية، بل بالعكس من ذلك. وعلى سبيل المثال، يعتبر الاعتداء على كنيس يهودي أو على متجر يهودي في هذا البلد أو ذاك في غير صالح اليهود لمسه معتقداتهم أو مصدر رزقهم، وفي غير صالح العرب لدفعه عدداً من هؤلاء للهجرة إلى اسرائيل والانخراط في آلة الحرب الموجهة ضدهم، ولا يستفيد من ذلك الا الصهيونية.

٢ – ان مسار الظاهرة الاستعمارية المتجه نحو الافول فيه مصلحة للانسانية كلها بما في ذلك العرب واليهود، وليس فيه أية مصلحة للصهيونية، ان لم يكن مؤشراً حاداً على أفولها، وبما أن الظاهرتين تمران، في الوقت الحاضر، في سياق نهايتهما، فانهما ستنعكسان بالضرورة سلباً على المشروع الصهيوني المجسد باسرائيل.

ومع ذلك، فان تجسيد الصهيونية – اسرائيل – لا يزال قوياً، بفعل عوامل ذاتية إلى جانب العامل العربي، من أهمها عامل الديناميكية الذاتية الذي برز